شمس الدين ابن الجزري وتاريخه

(حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه)

قال الشاعر :

لولا جرير والفرزدق لم يكن ذكر جميل من بني مروان
وملوك غسان تفانوا غيرما قد قاله حسان في غسان

وأقول : لولا التاريخ لطويت أعمالنا في هذه الحياة ، وزالت مآثرنا ، ولعدنا نلتمس الآثار الصامتة ، فلا نتبين الا علاقة ضئيلة ، نستنطق بها جماداً لا يبوح بما في نفوسنا ، ولا يعرب عن مكنونات صدرنا . فالاشارة لا تميط اللثام عن عقائدنا ومجتمعنا وآدابنا ، ودرجة ارتباطنا بالحوادث . فلولاه لتقوّل كثيرون بما شاؤا . وجلّ ما هنالك أننا نتطلب من التاريخ أن لا يميل مع الأهواء بل يدوّن الحوادث كما هي ، فلا يحل الألغاز أو الطلاسم المغلقة بل يعين ميول الحياة واضطرابها ، وما أصابها من تهيج ، فنلتمس بغيتنا منه . وكفاه مكانة انه يدوّن ما نعمل ، فيقوم بمهمة المصور ، فكان موضع اهتمام الأكابر والأصاغر وبه نستوحي جلية الماضي .

وان قومنا انجبوا مؤرخين أعاظم ، ساروا بهذا التاريخ خير سيرة في تصوير الحياة . ومن مشاهيرهم مترجمنا . كان عظيماً في تاريخه صارماً في لهجته ، عدلاً في بيانه ولا يهمه ان اغفلت الأيام ذكره مدّة .

١ ـ حياته :

هو العدل شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ابي بكر ابراهيم الدمشقي ، اشتهر بين مؤرخي الشام المعروفين اشتهاراً فائقاً ، وعرف بالتاريخ . وقد سبق ان ترجمته في مجلة (العالم الاسلامي) البغدادية . وقد اثنى عليه العلماء ، واطروه إطراءاً زائداً ، واخص بالذكر منهم البرزالي ، فانه كتب ترجمته بقلمه ، وعين مكانته العلمية والتاريخية ، وجاءت في آخر تاريخ ابن الجزري . وهذا نص ترجمته :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« هو الشيخ العالم ، الصدر ، العدل ، الرضى الكبير . شمس الدين ابو عبد الله محمد بن الشيخ العدل الصالح مجد الدين ابي اسحاق ابراهيم بن ابي بكر بن ابراهيم ابن عبد العزيز الجزري ثم الدمشقي . توفي ليلة الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ٧٣٩ هـ بجنينة التهم[1] ظاهر دمشق ، وصلي عليه صلاة يوم الاثنين ؟ بجامع جراح ، ودفن بمقبرة الباب الصغير ، ومولده يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ بدمشق ، وكان من خيار النـاس ، كثير المروءة ، مواظباً على الذكر والدعاء والتلاوة ، والأعمال الصالحة ، وكان من كبار العدول ، قام يشهد على الحكام مدة تقارب ستين سنة ، وكان اذا انفرد بشهادة اذن له الحكام في الاعلام بها ، ويكتفون بأخباره لوثوقهم به ، وطلب منه ان يشهد في قيم الأملاك لخبرته وديانته فامتنع من ذلك ، وتورع عنه ، ولم يدخل في ولاية ولا وظيفة . وسمع الحديث من جماعة منهم فخر الدين ابن البخاري ، وتقي الدين بن الواسطي ، وعزالدين الفاروثي ، وغيرهم من شيوخ دمشق ، ودخل القاهرة والاسكندرية وسمع من المشايخ شرف الدين الدمياطي ، وشهاب الدين الأبرقوهي ، والشريف تاج الدين العراقي ، وغيرهم من شيوخ الديار المصرية . وروى عنهم وحدث وسمع من الطلبة ، وكتب في الأحاديث . وكان محباً لفن التاريخ . جمع هذا الكتاب (اشار اليه والترجمة كتبت في آخره) وتعب عليه ، وذكر فيه اشياء حسنة لا توجد في تاريخ غيره . وحج الى بيت الله الحرام . وكان كثير البر والتصدق ، وعليه رسوم لجماعة من الفقراء . وفيه مودة كثيرة ونصح وشفقة على خلق الله عز وجل في قضاء حاجة من يقصده . وكان يتولى خدمة اهله وبيته بنفسه ، ويقصد راحتهم ، ومصلحتهم ، وكبرت سنه وهو على هذا الحال . وكان باراً بأولاده وأهله ومات والده وترك عنده اخوة صغاراً قربّاهم وأحسن اليهم ، وقام بأمرهم أتمّ قيام برفق وإحسان وتواضع وكلمة طيبة . ثم نشأ له أولاد ففعل بهم مثل ذلك . وكان له اعتقاد عظيم في الفقراء والصلحاء ، وله منهم نصيب وافر . وكان لا يفتر من ذكر الله عز وجل قاعداً وقائماً وماشياً . وكان عنده معرفة بقطعة

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب السهم (المجمع)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جيدة من الطب والأدوية والمنافع . يزور المرضى ويصف لهم ما ينفعهم ، ويشفق عليهم ويمدهم ويدعو لهم ، ويتضرع الى الله تعالى ، ويجهد في الدعاء لمن دعوا له بنصح وشفقة ، واذا مات ميت ممن يعرفه حضر جنازته ، وان لم يتفق له الحضور مشى الى قبره وصلى عليه ، وتلا على قبره ما يسر الله تعالى من القرآن العظيم ، ودعا له . وقد كتب أخبار الوفاة صلة لأجل ذلك . وله محاسن كثيرة وسير جميلة . رحمه الله وغفر له بمنه وكرمه . » اهـ

وهذه الترجمة كافية لمعرفة ابن الجزري وفيها من السعة ما ليس في غيرها . وفيها تصحيح لما جاء في (الدرر الكامنة فقد ذكر انه جمع تاريخًا مشهوراً ، ونقل عن الذهبي انه كان حسن المذاكرة ، سليم الباطن ، صدوقًا في نفسه . لكن في تاريخه عجائب وغرائب[1]) ... اهـ .

ولم يعين وجه الغرابة ولا ما دعاه الى التعجب ، والبرزالي أعرف به ، وهو مرجع مؤرخين كثيرين ، ورأيته ينقل عن أكابر علماء بغداد وأفاضلها ، وقال في الشذرات : « جمع تاريخًا كبيراً ، وذكر فيه اشياء حسنة لا توجد في غيره . » اهـ[2]

وجاءت ترجمته في تواريخ عديدة منها (التنبيه والايقاظ في ذيول تذكرة الحفاظ)[3] .

وقال ابن كثير :

« .. محمد بن ابراهيم الجوزي (صوابها الجزري) . جمع تاريخًا حافلاً كتب فيه اشياء يستفيد منها الحافظ كالمزي والذهبي والبرزالي : يكتبون عنه ، ويعتمدون على نقله . وكان شيخًا قد جاوز الثمانين وثقل سمعه ، وضعف خطه . وهو والد الشيخ ناصر الدين محمد واخوه مجد الدين . »[4] اهـ

وذكرت ترجمته باختصار في ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني الدمشقي ص ٣٢ . وفي العبر للذهبي : « — في سنة ٧٣٩ هـ مات شمس الدين — الجزري الدمشقي صاحب التاريخ الكبير في وسط السنة وله ٨١ سنة ، وله دين . وكان ساكنًا وقوراً . » اهـ

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٠١ . (٢) الشذرات ج ٦ ص ١٢٢ . (٣) التنبيه والايقاظ في ذيول تذكرة الحفاظ ص ٩ . (٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ — مؤلفاته :

جاء انه كتب في الحديث ... وكان محباً لفن التاريخ .. ولا يعرف له غير تاريخه .. وكثرة المؤلفات لا تدل على قدرة ، وكان يظهر علمه ، ومقدار تتبعه في تاريخه ..

٣ — تاريخه :

وهذا يسمى (حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه) على ما قاله الحافظ الشمس ابن طولون حيث نقل عنه في المجلد الأول من الفهرست الأوسط له . قال ابن حجر : جمع تاريخاً مشهوراً وله شعر وسط ، وخرج له البرزالي مشيخة ... والقطب اليونيني كثير النقل عن تاريخه في ذيله على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . [هامش ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني الدمشقي ص ٢٢ ..] وهو الذي يستحق التدقيق . ونسبته دائرة المعارف الاسلامية للبرزالي غلطاً .. وهو من مؤلفاته . ومنه نسخة مخطوطة في خزانة كوپريلي ، وكان منشأ التوهم من مرتب فهرس هذه الخزانة ، فوقع في ذلك بروكلمن المستشرق المعروف ، وقبله كان قد وقع صاحب تاريخ (التين اردو) ، فانه جعل تاريخ البرزالي احد مراجعه في (تاريخ المغول في روسية) ، ويقصد به تاريخ ابن الجوزي . وطبع هذا الكتاب مترجماً الى التركية من الأستاذ الجليل اسماعيل حقي الازميري سنة ١٩٤١ م وقد سبق ان وصفته في محيط المعارف الاسلامية التركية وصفاً مسهباً .

راجعت فهرس الخزانة فأحببت الاطلاع على هذه النسخة التي ذكرت باسم البرزالي المؤرخ لما له من المكانة المعتبرة ، فوجدتها تبتدئ من سنة ٧٢٦ هـ وتنتهي بسنة ٧٣٨ هـ ، وهي قديمة منقولة من نسخة المؤلف بخط عبد الله بن احمد بن يوسف البيري أصلاً ، الدمشقي مولداً الشافعي مذهباً كتبها سنة ٧٣٩ هـ — ١٣٣٨ م . ورقمها في خزانة الكوپريلي ١٠٣٧ .

وأول هذه النسخة « قال البرزالي .. » فأوهمت أنها له . وبعد مطالعتها لم يبق ريب في انها لابن الجزري ، وينقل احياناً كثيرة عن البرزالي ويصرح باسمه وهو القاسم بن محمد البرزالي ، وكانت بينهما مودة وصحبة اكيدة ، وان البرزالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— كما مرّ من إيراد ترجمته — له خبرة تامه بأحواله وما كان عليه من صلاح وتقوى، ورغبة في التاريخ، كما أن ابن الجزري ينقل عن البرزالي أحياناً، ويقول: كما أقول ذكر فهو من تعليق الشيخ الحافظ علم الدين البرزالي فسح الله في مدته .. لئلا يضيع تعبه .. » اهـ، فلم يبق إشكال في انه للجزري .

وقال السخاوي: « للعدل .. ابن الجزري (تاريخ كبير)، شهير بخطه في المحمودية، فيه عجائب وغرائب » اهـ[1] . ولعل الأيام تكشف عن وجودها ..

٤ — أجزاء تاريخه :

وان التاريخ المذكور أعلاه مجلد واحد ولا شك أنه احد اجزائه، والكتاب متعدد الأجزاء، وكانت ولا تزال التدقيقات عنه ناقصة في الغرب والشرق الا ان سوق الغرب راج فيه العلم، وصارت تجلب اليه كل بضاعة، وعندنا وقفت الحركة العلمية . وان كنا أعرف بتاريخنا، ولكننا اقتصرنا على مناقب الخلفاء والسلاطين ولم يعد احد يبالي بالنواحي العلمية والأدبية، ولا بالثقافة العامة، وتاريخ الأمة وما جاورها من أمم ..

قال المرحوم أحمد تيمور باشا في (كتاب اليزيدية) :

« وعندنا من تاريخ ابن الجزري جزء مصوّر بالشمسي فيه من سنة ٦٨٩ هـ الى سنة ٦٩٩ هـ » اهـ .

وأما المجلد الذي عثرت عليه فهو من سنة ٧٢٦ هـ — الى سنة ٧٣٨ هـ كما مرّ . ومن ثمّ نرى النقص بادياً .. وفي هذا رأيته يتوسع في بعض الحوادث، ويعد صفحة كاشفة عن أيام المغول في العراق وعن علماء بغداد، ومنهم أبو الخير الدهلي العالم المعروف ..

وجاء في لغة العرب المجلد السابع منها جزء ٢ ص ١٨١ أن الاستاذ حبيب الزيات طبع جزءاً منه نقله من نسخة باريس، طبعه بمطبعة المحامي في زحلة (لبنان) في ٤٢ بقطع الثمن . وسماه : (حوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأعيان من أبنائه » لشمس الدين محمد بن ابراهيم الجزري الدمشقي ...

ولا شك أن الأيام ستجلو عن باقي اجزائه ..

(١) الاعلان بالتوبيخ ص ١٤٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ — المختار من تاريخ الجزري :

ثم اني عثرت أيضاً على نسخة مخطوطة من كتاب (المختار من تاريخ الجزري) . وهي من اختيار الذهبي ، وبخطه ، وعندي نسختها المصورة ، وفيها نصوص مهمة عظيمة الفائدة لا يستغنى عنها . وهذا المختار أصله في خزانة الكوبريلي برقم ١١٤٧ قال الذهبي : وهذه نبذة فوائد من تاريخ المولى شمس الدين . وتبتدئ من بقية سنة ٥٩٣ هـ ، وامتدت ، فوقفت عند سنة ٦٩٨ هـ ، جعله كالتتمة لما تقح من المذيل على الروضتين ..

٦ — وصف العنب في تاريخ ابن الجزري :

قال المؤلف

« اتفق ان الشيخ الفلاني من مشايخ حماة — أنسيت اسمه — سافر من حماة الى دمشق ، أقام بها مدة وعاد ، فسأله أصحابه عنها فقال :

— رأيت أهلها كأنهم فرغوا من الحساب ، وتسيبوا في الجنة ، يأكلون ويشربون ، ويسرحون فيها .

وكان ابن عنين قد تفاه السلطان صلاح الدين وعاد الى دمشق زمن العادل فكان قد وصل الى (خان بالق) ، ومنه الى الهند واليمن ، ووصل الى مصر ، ومنها الى دمشق سأله المعظم عن عجائب ما رآه في البلاد التي سافر اليها فقال :

كل ما في الدنيا مفرق هو في بلدك مجموع موجود ، ويفضل عليهم بالأحمرين والأبيضين قال وما هما ؟ قال :

العنب الداراني ، والعنب العاصمي ، والأبيضين القنبريس والثلج . ونظم في غربته هذين البيتين وهما :

وقائل ان في الأسفار فائدة . يوسعن في الرزق ذا مال وذا خلق

وقدمضيت الى أقصى الذي كفروا(؟) . وجئت أرعن والشلاّق في عنق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تتمة أخبار الأعناب

وجاء في هامش التاريخ تحت العنوان المذكور وأظنه من الأصل :

« وأول ما أدخل الى دمشق (العنب الداراني) . وهو أحمر اللون ، مدوَّر ، حلو ، شبه السكر ، يبقى دور شهر وحده . ثم يتبعه (البرزي) . ابيض ، اصابعي ومدور . ويتبعها بقية الأعناب خمسة ألوان أو ستة . وأمير العنب (العاصمي) ... وأبيض مدور يسمى (قصيفا) حلو كبار ، و (بيض الحمام) ... والزبيب نحو خمسة او ستة ألوان : الدربلي ، والجوازمي ، والأسود ، والصفار بلاحب ، وغير ذلك . »اهـ[1] .

وهناك تفصيلات في الاحصاء ، والبيع في مصر وبغداد لم أستوعب ذكرها بل وقفت عند هذا . والكتاب موجود .

ويطول بنا البحث في هذا الأثر الجليل ، وما احتوى من نفائس .. وكان غالب المؤرخين في عصره متصلين به فلا محل للاسترسال بأكثر من هذا .

وكل ما نقوله ان هذا العصر (الثامن الهجري) كان طافحاً بأعاظم المؤرخين مما خلد أجلّ الذكريات ، وأنفس الآثار . اكتفى بهذا الآن .

والله وليّ الأمر .

(بغداد) عباس العزاوي

---

(١) في نزهة الأنام ذكر العنب في ص ٢٢٣ طبعة السلفية بمصر سنة ١٣٦١ هـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net